واهالي الواحات كسالى على الغالب يكرهون العمل وخصوصاً ما لم يألفوهُ من الصغر وهذا سبب فقرهم . فاذا ردمت بئر قديمة طلبوا من الحكومة ان تحفر لهم بئراً اخرى مع ان تطهير البئر الاولى قد يكون اسهل واقل نفقة من حفر بئر جديدة . ولو اعتني الاهالي بحفظ الآبار القديمة سالمة من الردم وباستخدام الوسائل لرفع المياه (وهي احياناً على عمق قليل جداً تحت سطح الارض) لزادت اراضيهم الزراعية وتحسنت احوالهم كثيراً

وآلات حفر الآبار التي في الواحات بسيطة جداً اشبه بالآلات المستعملة الآن في القطر المصري ويستعملون عوضاً عن الانابيب الحديدية انابيب من خشب السنط متقنة الصنع جداً لا تنفذ المياه جدرانها . ويظهر ان صناعة هذه الانابيب قديمة جداً في الواحات فان الانابيب التي في العيون الرومانية لا تزال في حال صالحة كما لو كانت قد صُنعت حديثاً

وفي الواحات من المعادن الفصفات وهو في الداخلة ولو لا بعد المسافة لامكن نقلهُ بسهولة الى وادي النيل والانتفاع بهِ في تسميد الاراضي . وفيها ايضاً الشب والحمرة والملح وقليل من الكوبلت والنكل ولكن الراجح ان هذه المعادن كلها موجودة بكميات قليلة لا تفي بنفقة استخراجها

وقد بحث جيولوجيو مصلحة المساحة في مصر عن اصل الواحات وكيفية تكونها فذهبوا الى ان طبقات الارض تغير ترتيبها هناك في احد العصور الخالية لسبب طبيعي فانكشف كثير من الطبقات اللينة وتعرضت للرياح ففتتتها وحملت ترابها وبذلك انخفضت الارض . ولا تزال الرياح في تلك الانحاء تفعل هذا الفعل الى الآن والواحات تزيد اتساعاً

نسيم بربارى

منزلة الشعر من التاريخ

﴿ ٣٣ ﴾ الحصون والآطام

كان العرب يستخدمون في البناء الشيد والاجر والقرميد قال النابغة الذبياني

او دمية من مرمر مرفوعة بُنيت بآجرٍ تُشاد وقرمدِ

وقد شادوا الحصون المنيعة والآطام الراسخة كالخورنق والسدير وقصر غمدان واحتفروا الآبار وكلُّ ذلك قد جاء في شعرهم قال السموأل المشهور

بنى لي عاديا حصناً حصيناً وبئراً كلما شئتُ استقيتُ

يشير بقولهِ هذا الى الابلق الفرد الذي دعاهُ لمنعتهِ جبلاً حيث قال

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا اصلهُ تحت الثرى وسما بهِ الى النجم فرع لا يُنال طويلُ
هو الابلق الفرد الذي شاع ذكرهُ يعزُّ على من رامهُ ويطولُ

وقد ذكر الاعشى ميمون باني هذا الحصن فقال

بناهُ سليمان بن داود حقبة لهُ ازج عالٍ وطيٌّ موثقُ (١)

وظاهر هذا القول يناقض قول السموأل ان الحصن من بناء عاديا (ابيد) والتوفيق بينهما هو ان سليمان بناهُ وعاديا رممهُ فدعا السموأل الترميم بناء احتذاء بالكتاب الذي دعا ترميم سليمان تدمر بناء . وقال احيحة بن الجلاح اليثربي

وقد اعددتُ للحدثان حصنًا لو ان المرء ينفعهُ العقولُ
طويلَ الرأس ابيض مشمخرًّا يلوح كأنهُ سيف صقيلُ

وقال هذا الشاعر في خطاب عاصم بن عمرو من بني مازن بن النجار الخزرجي

نبئتُ انك جئتَ تبـ ـري بين داري والعبابهْ
فلقد وجدتَ بجانب الـ ـضحيان شيئًا ذا مهابهْ

والضحيان الحصن الذي بناهُ واشار اليهِ في ما سبق وقد بنى قبل الضحيان حصنًا سماهُ المستظل بدليل قولهِ

بنيتُ بعد مستظلٍ ضاحيا بنيتهُ بعصبة من ماليا

وتسمية الضحيان ضاحيًا للمناسبة اللفظية . اما الآطام فسندل عليها بقول الاعشى ميمون بن جندل

فلمَّا اتت آطام جوٍّ واهلها انيخت فالقى رحلها بفنائكا

وقال قيس بن الخطيم الاوسي

فلولا ذرى الآطام قد تعلمونهُ وترك التنا شُوركتمُ في الكواعبِ

واما الآبار فقد ذكر احتفارها الفحل اخو بني ام الكهف من طيء قال

فان الماء ماء ابي وجدي وبئري ذو حفرتُ وذو طويتُ

وبنو طيء من العرب البدو فدل قولهُ على ان البدو فضلاً عن الحضر كانوا يحفرون الآبار لقلة الماء في ديارهم

﴿ ٣٤ ﴾ البيوت

وكانوا يتخذون البيوت من أدم قال طرفة

(١) الازج يبنى طولاً

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا اهل هذاك الطراف الممدَّدِ (٢)

ومن شعر قال مضرس بن ربعي الاسدي

كأنَّ لنا منهُ بيوتًا حصينة مسوحًا اعاليها وساجًا كسورُها (٣)

وقال عمرو بن قعاس المرادي

وبيت ليس من شعر وصوف على ظهر المطية قد بنيتُ

ومن النسيج قال طفيل بن عوف الغنوي

وبيت تهبُّ الريح في حجراتهِ بارض فضاء بابهُ لم يحجَّبِ

سماواتهُ اسمال برد مفوَّف وصهوتهُ من اتحمي معصَّبِ (٤)

واطنابهُ ارسان جرد كأنها صدور القنا من بادئٍ ومعقبِ

﴿ ٣٥ ﴾ المدافن

اذا علقت ايدي المنية باحدٍ جعلوا لهُ نعشًا حملوهُ عليهِ الى قبرهِ قال كعب بن زهير

كل ابن انثى وان طالت سلامتهُ يومًا على آلة حدباء محمولُ

وكانوا يشيدون على قبور الموتى ابنية ونستدلُّ على ذلك بقول عدي بن ربيعة المعروف بالمهلهل التغلبي حيث قال

سألتُ الحيَّ اين دفنتموهُ فقالوا لي بسفح الحي دارُ

فسرتُ اليهِ من بلدي حثيثًا وطار النوم وامتنع القرارُ

وحادت ناقتي عن ظل قبر ثوى فيهِ المكارم والفخارُ

وقال لبيد بن ربيعة العامري

وهل هو الاَّ ما ابتنى في حياتهِ اذا قذفوا فوق الضريح الجنادلا

ولا يخالنَّ القارئُ انهم كانوا يقيمون الحجارة رجمة تقذف على القبر قذفًا كما يلوح من قول لبيد . بل انهم كانوا يشيدون المدافن كما تشيَّد في هذا الزمان وقول لبيد من باب تحقير الشيء والتزهيد . ودليلنا على ما ادعيناهُ قول مسكين الدارمي

---

(٢) غبراء الارض و بنو غبراء الفقراء . والطراف البيت من ادم واهل الطراف الممدد الاغنياء

(٣) المسوح جمع مسح وهو الثوب من الشعر او الباس . والساج الطيلسان الاخضر او الاسود . والكسور جمع كسر وهو الثقة السفلى من الخباء

(٤) برد مفوَّف اي رفيق او فيهِ خطوط بيض على الطول واسمال خلق اي بالٍ فقدم الصفة على الموصوف وجعلها مضافًا ككبير امر

ونابغة الجعدي بالرمل بيتهُ عليهِ صفيح من رخام مرصّعُ (٥)

وقال البرج بن مسهر الطائي

نطوّف ما نطوّف ثم يأوي ذوو الاموالِ منا والعديمُ
الى حفر اسافلهنّ جوف واعلاهنّ صفّاح مقيمُ (٦)

كانوا يطوّفون القبر بالريحان والازاهير ذات الرائحة الذكيّة و يستمطرون عليهِ الغيث قال النابغة الذبياني

سقى الغيثُ قبرًا بين بصرى وجاسم بغيث من الوسمي قطر ووابلُ
ولا زالَ ريحان ومسك وعنبر على منتهاهُ دية ثم هاطلُ
وينبت حوذانًا وعرفًا منوّرًا سأتبعهُ من خير ما قالَ قائلُ

وكانوا ايضًا يضمخون قبر العزيز عندهم بالخمر قال حاتم

اماويَّ اما متُّ فاسعي بنطفة من الخمر ربًّا فاضمخنّ بها قبري

وقال نصر بن غالب

امتْ على قبريكما من مدامة فالاّ تذوقاها تروّ ثراكما

وكانوا ايضًا يعقرون على القبور الخيل قال الفرزدق في رثاء بشر بن مروان

غضبتُ ولم املك لبشر بصارم على فرس بين الجنازة والقبرِ

وقال حفص بن احنف الكناني

لا يبعدنّ ربيعة بن مكدّم وسقى الغوادي قبرهُ بذنوبِ (٧)
نثرت قلوصي من حجارة حرة بنيت على طلق اليدين وهوبرِ
لا تنضري يا ناقُ منهُ فانهُ شرّاب خمرٍ مسعرٌ لحروبِ
لولا السفار وبعدهُ من بهمهِ لتركتها تحبو على العرقوبِ (٨)

وقال زياد بن الاعجم يرثي المغيرة بن المهلّب

فاذا مررتَ بقبرهِ فاعقر بهِ كوم الجلاد وكل طرف سابحِ

(٥) الصفيح وجه كل شيء عريض · والمرصع المطلي (٦) الصفاح حجارة عريضة رقيقة
(٧) الذنوب الدلو العظيمة وقيل لا تسمى ذنوبًا حتى يكون فيها ماء
(٨) البهمة المفازة · وتحبو من الحبو وهو ضرب من الدبيب · والعرقوب من الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها · وقوله تحبو على العرقوب كناية عن الذمع لان العرب كانوا يضربون ساق الناقة قبل ذبحها قال ابو طالب

ضروب بنصل السيف سوق سمانها اذا عدموا زادًا فانك عاقرُ

وانضح جوانب قبرهِ بدمائها فلقد يكونُ اخا دم وذبائحِ (٩)

وكانت نساؤهم يخمشن وجوههنَّ ويحلقنَ شعورهنَّ اسفًا على الميت قالت الخنساء

لما استبانت ان صاحبها ثوى حلقت وعلت رأسها بسقابِ (١٠)

وربما علقنَ في رقابهنَّ نعال ازواجهنَّ او انسبائهنَّ قالت الخنساء

هريقي من دموعكِ واستفيقي وصبرًا ان اطقتِ ولن تطيقي

بعاقبة فانَّ الصبر خيرٌ من النعلين والرأس الحليقِ

وكانوا يؤبنون الموتى بتعديد مناقبهم كما جاء عن عبد المطلب انهُ حينما ايقن بدنو الاجل استدعى اليهِ بناتهِ واستنشدهنَّ ما عزمنَ على تأبينهِ بهِ فانشدت كل واحدة مرثاة من جيد الشعر والقصة مشهورة والمراثي مثبتة في ديوان شواعر العرب

ولم يكن تأبين الاموات خاصًّا بالنساء فكان الرجال يقفون على الجنازة فينشدون الشعر رثاء للميت كما روي انهُ لما وُضع وكيع بن ابي سودٍ المقراني على نعشهِ جاء الفرزدق والناس قيام حول الجثة فانشد قصيدة مطلعها

ليبكِ وكيعًا خيل حربٍ مغيرة تساقي المنايا بالرديني السمرِ

الى ان يقول

فلو انَّ ميتًا لا يموت لعزة على قومهِ مامات صاحب ذا القبرِ

أُصيبت بهِ عمرو وسعد ومالك وضبة عمُّوا بالعظيم من الامرِ

واما مدة الحداد فهي حول قال لبيد العامري

تمنَّى ابنتاي ان يعيش ابوهما وهل انا الَّا من ربيعة او مُضَرْ

فقوما فقولا بالذي تعلمانهِ ولا تخمشا وجهًا ولا تحلقا شَعَرْ

وقولا هو المرء الذي لا صديقهُ اضاع ولا خان الخليلَ ولا غدرْ

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حولًا كاملًا فقد اعتذرْ

امين ظاهر خيرالله

---

(٩) نضح القبر بالدم رشهُ و بلهُ

(١٠) السقاب قطعة كانت المصابة تحمرها بدمها وتضعها على راسها وتخرج طرفها من قناعها ليعلم انها مصابة